

المقالة الثانية عشر^١

في الابتهاال والتخشع

أنت وحدك الإله الصالح المتحنن ؛ الآتي بكافة الخيرات وعين الأشفية وكنز الرافات ؛ المعطي دائماً الخيرات للذين يسألونك .

فاذ كنت أنا نفسي قد نلت الخبرة بأشفية لا تحصى ومواهب جليلة خولتها لي يوماً فيوماً ؛ فمن أجل ذلك بلا خجل أتضرع إليك أيها المسيح الإله المحتمل البشر أن توافيني بنعمتك كالعادة ؛ لكي ما تجمع ذهني وتشفي جراحتي المخفية .

لأن الانغلاب والتنزّه قد عملا فيّ جراحت مكثومة ، فأنت أيها الطويل الأناة ؛ المتمهل الشافي كل وقت بنعمتك ورافاتك ؛ شفيت بما أنك متحنن أمراض أنا الخاطئ .

وما أمكنني بالجملة أن أعطي أجره عوض الأشفية ، لأن أشفيتك من أين لها قيمة ، إن السماء والأرض لا تستطيع أن تقضي مكافأتك بواجب الاستحقاق عوض أشفيتك ؛ إذ أشفية خيراتك هي رافاتك الجزيلة .

ولا يمكن أن تباع أشفية سماوية و قدسية لأنه لا ثمن لها ، إنما بالدموع تهبها ؛ وبالبياء المر تهبها للكل ، ترى من لا يعجب، ترى من لا يندهل، ومن لا يبارك كثرة تحنن خيراتك يا مخلص نفوسنا .

لأنك ارتضيت أن تأخذ الدموع أجره عوض أشفيتك . فيا لقوتك أيتها الدموع . إلى أين تبلغين ؟ تدخلين إلى السماء نفسها بمجاهرة كبيرة بلا مانع ، يا لقدراتك فإن مواكب الملائكة مع كافة القوات يستبشرون كل وقت بدالتك .

أيتها العبرات كيف تستطعين إذا شئت أن تمثلي بفرح أمام عرش السيد الطاهر ، العرش الأقدس الشاهق ؛ كيف تصعدين إلى السماء في لحظة عين طائرة وتأخذين طلباتك من الإله القدوس ؛ فيلنقذك بطلاقة حاملاً صفحاً .

فأعطيني أيها السيد أنا الغير مستحق دموعاً كل وقت ؛ واستنارة وقوة لتتبع فيّ كل حين عينايا دموعاً بحلاوة ؛ فيضئ قلبي بالصلاة النقية وتمحي الكأبة العظيمة ، وتنطفئ هناك النار المحرقة بدموع يسيرة .

لأنني إن بكيت هنا سأنجي هناك من النار التي لا تطفأ ، لأنني كل يوم أعيظ أيها السيد أناتك الطويلة ؛ ومرارتي وتحننك هما قبالة عيني ، فلتغلب خيراتك وطول إمهالك مرارتي ؛ لأن الطيور بتحنن عظيم تغذي فراخها ؛ وإذا نكرتها هذه فلا تتوانى ولا تغفل عنها لأن تحننها يغلب عليها .

فاذا كانت الطيور لها تحنن هكذا ؛ فكم بالحري تغلب نعمة رافاتك فترحم كل المشتاقين إليك . وكذلك الأم التي تُشتم من ولدها لا يحتمل قلبها أن يعرض عنه لأنها تُغلب من تحننها ، فإن كانت الأم تُغلب من تحننها ؛ فكم أولى بذلك نعمة تعطفك أيها السيد المحب للنفس أن تغلب كل وقت من قبل رافاتك فتخلص وترحم النائحين دائماً .

فاذ حدق بي العدو النجس الذي يحزنني دائماً ؛ فأغثنني بالدموع في الليل والنهار لتتقذني من قتالاته ؛ لأنني لا أستطيع أن أحتمل حيل الخبيث وصناعه إن ابتعدت عني نعمتك لحظة .

^١ كتاب: مقالات مار إفرآم ملفان الكنائس السورية ومعلم الأرثوذكسيين أجمع وقف على طبعه أحد رهبان دير السيدة العذراء البراموس في بركة الأنبا مقاريوس طبع سنة ١٨٩٢

لأنه ساعة بعد ساعة يضغط نفسي بالأقوال والأفعال ؛ فلنجره قوتك التي انتهرت الأمواج البحرية لكي يبطل عن عبدك ؛ لأنه كل وقت يجدد عليّ حيله ، ويحرص أن يتملك على ذهني فيبعده عن حلاوة تلاوة وصاياك الإلهية .

أيها السيد أرسل بسرعة نعمتك لتطرد عن عبدك الشعبان العظيم مع كافة الأفكار القبيحة والخبثية . فليقتنعك مثلك يا سيدي لأنك قلت : انه كان في مدينة ما قاضي غير خائف من الله ، ولا يستحي من إنسان ؛ وكانت في تلك المدينة أرملة فقيرة ؛ وكانت تجيئه كل وقت قائلة أنصفي من خصمي ؛ فلبث معرضاً عنها مدة طويلة بعدم تحنن متهاوناً بها ، لكن صبر الأرملة استطاع أن يقوم ذلك الفاقد التحنن والرحمة ؛ ويستميله إلى الانتصار .

فالأرملة المظلومة تقدمت إلى قاضي لا تحنن له ولا شريعة لينتصر لها من خصمها ، أما أنا أتقدم إلى سيدي المتحنن المتمهل الصالح ؛ المالك السلطان على الأرض وفي السماء أن يسمع مني . أيها الإله المبارك الحاوي الفم الإلهي القدوس الذي لا يكذب ؛ لقد قلت أيها المخلص إنك تصنع الانتقام لكافة المتوكلين عليك في الليل والنهار ، يا سيدي لا تتباطأ عن الانتصار لي ، أنقذني من العدو ؛ وسهل مسيري إليك لأغلب العدو بنعمتك .

لك وحدك أبارك ، لك وحدك أمدد ؛ أيها المتحنن الطويل الإمهال المرید أن كافة الناس يخلصون ، فإذا قد نفذ زمان حياتي في الباطل ؛ وفي الأفكار القبيحة ؛ أعطيني دواءً لأبرأ بالكمال من جراحاتي المكتومة ؛ وأيدني لأعمل في كرمك بنشاط ولو ساعة واحدة .

فقد بقى لي من زمان حياتي الساعة الحادية عشر ، دبر مركب تجارتي بوصاياك ؛ وأعطي التاجر الحقيير فهماً ؛ لكي ما أتجر بتجارتي ما دام لي وقت ؛ فإن سير المركب قد وصل إلى نهايته ؛ والوقت يدعوني أنا المنتزه والمتعظم قائلاً : أيها الكسلان هلم ؛ فأين تجارة زمان حياتك ؟

إن ساعة الموت تخيفني لأنني أبصر أعمالي فترتعد نفسي ، وأنظر إلى ونية عجزني فتفرق عظامي ، لأن ساعة الفراق قد تقدمت أمام عيني ؛ فإذا تأملتها خفت جداً ، و عوض ما أفرح أغتم كثيراً لأن أعمالي غير مستحقة الفرح .

لأن خوفاً عظيماً في أوان الموت لكافة الخطاة الذين يماثلوني ؛ وفرحاً جزيلاً في أوان الفراق لكافة القديسين والصدّيقين ولسائر الناسكين . وساعة الفراق حزن لكافة الذين ليسوا قديسين ولا نشطين ؛ وللمسترخين إذا ذكروا ونهيم وونية زمان حياتهم الماضي .

الندامة تعذب حينئذ قلب الإنسان تعذيباً كثيراً ؛ إذ تواني هنا عن خلاصه ، والقديسون والصدّيقون والنسائك يبتهجون في ساعة الموت والفراق ؛ إذ يشاهدون أمام أعينهم جسامة عمل نسكهم ، عمل الأسهار والصلوات ؛ والأصوام والدموع ؛ وأضطجاعاتهم على الأرض ؛ ولبسهم المسوح ؛ فتظفر نفوسهم فرحاً لأنهم قد أمروا أن يخرجوا من جسدهم إلى النياح .

مرهوب ورود الموت على الخطاة المسترخين ؛ والذين لم يحرصوا أن يسيروا بطهارة في هذا العالم الباطل ، وغم مؤلم جداً يشمل ساعة الفراق الإنسان الخاطئ ؛ لأنه لا يسمح له أن ينطق بشيء البتة . ويلك يا نفس ويلك من أجل ماذا تتوانين في خلاصك ؟

لم تصرفين في التنزه أيام حياتك كلها ؟ ألا تعلمين أن دعوتك ستصير بغتة ؛ فماذا تصنعين هناك قدام مجلس القاضي المرهوب ؟ إذا توانيتي هنا أي اعتذار لك تجاوبين به ، كيف يسترقك العدو يا شقية ولا تفهمين .

وكيف تُضيعين الغنى السمائي يوماً فيوماً متفرجة ولا تعلمين ؟ فوقي يا نفس فوقي في ساعة الحرب ، اطلبى إلى الله بدموع ، اصرخى إلى الله بتوجع قلب ؛ وفي الحين يرسل لمعونتك ملاكاً رؤوفاً ؛ ويعتقك من محاربة العدو ورجته .

احرصى ألا تسقطي في ساعة الفراق في حزن وزفرات فتبكين بكاءً لا ينفع إلى أبد الدهر ، وتتقاطر خواطر الأفعال كلها في تلك الساعة إلى ذهنك فتقولين حينئذ منتحبةً شديداً :

أنا قد كنت أتذكر في كل ساعة هذه كلها ؛ وأناشد ذاتي وأقول : أعبّر الأيام التي أنا فيها على الأرض متحرزة ألا أخطئ ؛ ولا أسقط من وصايا الله ؛ بل أعمل كل حين الأعمال التي ترضية بنشاط كثير ، فقد وجدت الآن مصفرة ليس لي بالجملة تقوية واحدة جيدة .
أيتها النفس الشقية أصغي إلى ذاتك ؛ جاهدي بمداومة ؛ وأتقي الله كل وقت ، أتقي الله إلهك وأرضيه بأعمال صالحة حتى إذا حان وقت الفراق وساعة الموت يصادفك حسنة النشاط تنتظرينه بفرح عظيم .

أيتها النفس تفرسي في سيرتك وفي دعوة الله ؛ لأن ساعة الفراق لا تحزن حراً معتوقاً من كافة الأشياء الأرضية ، لكن الموت يحزن الرجل المنتزه والخطئ .
المهمل يحزن بسيرته ، والعاجز الذي عجز عن عمل الأفعال المرضية لله يحزن .
والكثير القنية والموسر الذي كثف نفسه بالأمور العالمية يحزن لأنها تفصله من العالم بلا اختياره ، يحزن الأبناء لأنه يفرقهم من آبائهم المحبوبين ومن غناهم والإخوة لأنه يميز بعضهم من بعض بكاء . هؤلاء كلهم يحزنون في ساعة الموت لأنهم قد تقيّدوا بالأمور العالمية .
فأنتِ أيتها النفس الحرة من أجل ما تنفسين وتتنهدين إذ تستريحين من العالم وجراحاته ؛ أثبتتي كل وقت مدعوة حرة ؛ واسلكي في طريق الله بثناء جميل بنشاط الأفعال المرضية له .
إن أحببت الله من كل نفسك فلا ترهبي قط ساعة الموت ، لكن الموت وفراق الجسد يصيران لك بالحرى فرحاً .

سلمني أيها الطويل الأناة؛ وخلصني أيها المسيح ابن الله الفاقد الخطأ، أعطيني أيها المخلص دراسة الحياة حتى لا أملك في قلبي ؛ ولا أقتني سوى هذه الدراسة لأكمل كل حين مشيئتك ، وبمؤازرة نعمتك إياي أنا الخطئ أكون حسن النشاط سالكاً في أوامرك بصحة ؛ كي ما أتجر حسناً بالفضة التي أعطيتها لي .

وإذا أتجرت التجارة الحسنة في حقلك ؛ أنال منك المديح وأقول بدالة واستبشار قلب : إذا أقبلت يارب لقد حصلت مغبوطاً لأنك جننت وألبستني لباساً لانقاً بعرس الختن الباقي .
وأوقد المصباح الذي وهبته لي بنعمتك وإطالة أناتك ؛ وأخرج بفرح إلى استقبالك ممجداً ومبارك الختن الذي لا يموت ، وأوهل أن أصير مشاركاً للصديقين والقديسين الذين أرضوك إلى الأبد .

أمين